تجربتي مع بيت المَرَايا

"الجهل بالذات" من أسوأ أنواع" الجهل" والبحث عنها عمل من أنبل الأعمال وأنفعها

عبد الكريم بكار

كانت أمتع اللحظات لي وانا أصطف مع أصدقائي في طابور طويل للدخول لهذه اللعبة المذهلة ، كنت أفضل تلك اللعبة بعينها رغم ما تتصف به من ملل ورتابة ؛ فليست بها حركة أو خوف أو ما يدعو للصراخ كما أعتادنا في العاب الملاهي ، لا أحد يفهم مغزاها أو الفكرة التي تقوم عليها تلك اللعبة غير انها لعبة تدعو لبعض السخرية والضحك وتقوم علي الخدعة فقط ، كانت تلك اللعبة موجودة كلعبة أساسية في أي ملاهي عندما كنت طفلة صغيرة ، فلم يكن لبرامج " الفوتوشوب" هذه المكانة والسطوة التي ينعم بها اليوم في هذا العصر؛ لذلك كان لها سحرها الخاص عند البعض مثلي ، لم أكن أدرك علة حبي لتلك اللعبة ولهفتي الشديدة للدخول والاستمتاع بها ولكن عندما تذكرت منذ فترة لهوي بها ، أيقنت السبب وراء ذلك الشغف الشديد ! كانت اللعبة تبدأ بمتاهة صغيرة ندخل بها وراء بعضنا لنكتشف بعد ذلك أن كل طفل ذهب بطريق وليس مع صديقه الذي كان يمسك بيده ، كانت المتاهة هي عبارة عن ممرات ضيقة محاطة بجوانب مكساة بمرايا كثيرة ويوجد جانب واحد فقط مفتوح للدخول وهكذا في كل ممر ، وكانت هنا الخدعة الأولى عندما تخطئ تقدير الجانب المفتوح للدخول فتصطدم بمرآة من شدة سرعتك و هرولتك للوصول الي النهاية .

وهنا يتماثل الموقف مع الحياة عندما نبدأ طرق كثيرة مع أحباب وأصحاب ولكن تأخذهم المتاهات في دروب متابينة لنفترق ولنعلم ان تلك هي الحياة ، رغم كل الوعود ، رغم كل الحب ، تجبرناالحياة على ذلك ولا تعطي لنا فرصة الاختيار ويجب أن نتقبل بكل انكسار ألم الفراق ونصدم بالواقع المريروالكبوات المفاجئة ويجب أن نواصل السير ونجري لاهثين في دروب المتاهة الكبرى وهي الحياة.

وبعد عدة صدمات وضحك مع بعض القلق البسيط لطول الممرات نصل الي داخل البيت فنجد أصدقائنا الذي أصطحبناهم في بداية المتاهات ، وها قد تقابلنا مجدداً والغموض الذي كان يحيط عقلنا بماهية هذا البيت قد تكَشف . وجدنا عدة مرايا مختلفة الطول والعرض والشكل بل والأبعاد ،أخذنا ننظر في كل مرآة ، الواحدة تلو الأخرى ، وتنساب منا الضحكات الطفولية العالية ، كسيل جارف حتي اننا كنا نسمع صدى صوت ضحكاتنا الممزوجة ببعضها البعض ، كان السر وراء هذه الضحكات أن كل مراية تعطي شكلا لأجسامنا مختلف عما نعرفه ، فالمرآة الأولى كانت تعطي شكلا قصيرا لجسدي ، كنت أضحك بشدة متسائلة من هذه ؟! كنت أبدو شديدة القصر، وأتجهت على المرآة الأخرى وإذ أجد نفسي بدينة جدا بل شديدة البدانة لدرجة جعلتني أشك في ذاتي ونظرت الي جسدي لأتحقق

توجهت إلي واحدة أخرى وإذا بها النقيض للمرآه الأولى ، كنت فارعة الطول ، فرحت بتلك الابعاد حتى لو لم تكن حقيقية ، حيث أنني كنت من أقل الأطفال طولاً ، فتبسمت في خيلاء لزملائي وصرت أتباهى بطول قامتي الجديد ! وكانت هناك أشكال وألوان من المرايا التي تغير شكل الجسم وتبدل ملامحه ، فكانت الغاية الوحيدة هي الضحك والسخرية في تلك اللعبة العجيبة التي لم يعد لها مكان في وقتنا الآن .

كنت أستمتع بكل لحظاتي في هذه التجربة القصيرة ، كنت أتفاخر بما ليس حقيقي ولا أملكه من سمات جسدية أيضاً كنت أتبادل السخرية مع أصدقائي لما تبدو عليه أشكالنا الجديدة المزيفة في تلك المرايا العجيبة ، ذكريات بدأت تراودني في الأونة الأخيرة لتذكرني بذلك الوقت الحافل بالحيوية والضحك النابع من القلب ،وهنا جال بخاطري أن أتأمل في هذا البيت الجميل الذي كنت ألهو به وأتمتع بأسعد الأوقات ، تحققت أن سبب حبي له كان ينبع من فكرة عميقة كانت مترسخة بكياني ولازلت أؤمن بها ؛ هي فكرة تستحق أن يؤمن بها الجميع ويقدرها لأنها واقعية جداً ، لا تظلم نفسك وتظن أن صورتك الحقيقة هي التي تراها بالمرآة أو بعيون الناس ، وإن تعددت المرايا أوشخصيات الناس المحيطين بك ، قد ينذرك البعض إلى عيب أو ينبهوك أصدقائك المخلصون الحقيقيون إلى ثغر في نفسك لترممه لأنه لن يراه إلا من كان قريباً منك حقاً وهذا جيد لأنه يقودك لتكون في وضع أفضل ، أما صورتك الحقيقية والأبعاد الفعلية لشخصيتك وقوتك الكامنة وطموحاتك

الشخصية انت فقط من تدركها ، أنت فقط من تحددها ، لا تجعل صورتك تهتز بأراء الاخرين، لا تتهاوى عندما تتلقي النقد ، لا تصدق كل مرآه تريد أن تبث بك أبعادها وتعكس من خلالك مواطن حرجها ، لترمي بك سمها وتخفي ما تخجل منه في دواخل نفسك. لا تصدق من يريد أن يسئ إلى نفسك بأنه يتحكم بك ويؤثر علي طموحاتك وملامح واقعك الحقيقي .

آمن بنفسك ، ثق بقدراتك ، وأدرك مواطن قوتك لتستفيد بها، وأعرف نقاط ضعفك لتعمل على إصلاحها أ لا تسمح لأحد بأن يعطيك تصورات خاطئة عن شخصيتك أو خططك أو أحلامك ، لا تجعل أحد يرسم معالم حياتك ، لا أتحدث هنا الوهم أو الغرور أو الكبرياء ، لست أقصد أن ننتهج هذه الصفات البغيضة ، فليس هناك أصعب من سجن الوهم والخيلاء المزيفة لكني أتمنى أن يعتنق الجميع فلسفة معرفة الذات المعرفة الحقة حتي لا نتخبط في مأسى الحياة أو نبني حياتنا وفقاً لما نراه في عيون الناس .
و أدركت ان الدرس الحقيقي الذي كان يجب أخرج به من بيت المرايا بجانب شحنة الضحك المكثفة هي الثقة بالنفس مهما كانت مؤثرات الفشل وصياحات اليأس وقهقهات الزيف. أدركت حينها أن لا أجعل أحد يجعلني أشعر بالسوء تجاه نفسي عندما أقابل خديعة مؤسفة أو صداقة مزيفة أو صفعة مؤلمة لأني سوف أنظر الي معالمي وذاتي الحقيقية في حينها ، وأعلم انها كانت مجرد أبعاد مزيفة حتى لو لم أجد مرآة بأبعاد حقيقية ، سوف أتلمس ملامح وجهي بيدي لأتيقن أني على حق !

"الوعي التام هو العلاقة مع أنفسنا ومع الآخرين من حولنا في العالم، وإدراكنا أن هذا قد يكون طريقة جديدة للتفكير بشأن الوعي التام بالنسبة للكثيرين"
مارجي أولبريك